الفصل الرابع

الوساطة والوسطاء

جاور المسلمون الأوروبيين ، وقاسموهم حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانت معظم الأمصار الإسلامية تمثل جزءاً من أراضي الإمبراطورية الرومانية . وكان المسلمون - شأنهم شأن الأوروبيين - يعرفون الكثير عن التراث اليوناني والروماني ، ويعرفون الكثير عن المسيحية وبعض الثقافات والأديان الأوروبية أكثر من معرفتهم بالحضارات الآسيوية والإفريقية [1] ، لذلك كان الستار الحديدي - بين الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى - يداوم المحافظة على التبادل الثقافي إلى أقصى الحدود ، وقد يفرض بعض القيود على المعاملات الدبلوماسية والتجارية . ومن ثم كان للعالم الإسلامي خطوط مواصلاته واتصالاته الداخلية الخاصة براً وبحراً ، فقد كان مستقلاً بذاته تماماً عن الطرق والخدمات الغربية ، مستشعراً الفخر والزهو ، واثقاً بتفوقه ، محتقراً همجية الرجل الأوربي والوثني غير المؤمن ، الذي يقطن أراضي الشمال ، وأراضي البحر الأبيض المتوسط وأوروبا .

بعد ذلك بدأ الإسلام زحفه تجاه أراضي غير المؤمنين به ، ولم يرض بعض من الناس عن هذه الخطوة ، ولكن لم يكن منها مفر ، هذا إلى جانب انعدام الضرر من اتخاذها .

ولقد قام كاتب جغرافي مسلم في القرن العاشر الميلادي - بوصف روما من خلال ثلاثة تقارير قام بتدوينها عن بعض الرحالة الذين لم يذكر أسماءهم ، ولكنه أورد ذكرهم على أن أحدهم يهودي ، وثانيهم راهب مسيحي ، وثالثهم تاجر . ويبدو أن هذه الفئة من الناس هي التي كانت تنتقل بين العالمين : الإسلامي والمسيحي [2] . كان

الحجاج المسيحيون واليهود يتوجهون لزيارة الأراضي المقدسة في القدس (أورشليم) وكان بعض من رجال الكهنوت المسيحيين يتجهون من الشرق إلى روما ، وقد ساعد ذلك على تقوية الوشائج بين روما وعديد من كنائس الشرق .

أما المسلمون . . فكانوا يتوغلون في الأراضي الأوروبية وغيرها مرتحلين عن رغبة في الارتحال أو غير رغبة . ويحكى أن أسيراً أعرابياً يدعى "هارون بن يحيى" ألقي القبض عليه في الشرق ، وذلك في القرن التاسع ، ثم نقل إلى القسطنطينية ، ومنها إلى روما بعد فترة وجيزة [٣] .

يوضح هذا المثال أن وجود هؤلاء الأسرى المسلمين في أيدي المسيحيين جعلهم يعرفون كثيراً من المعلومات عنهم ؛ خصوصاً خلال العهد العثماني عندما اندلعت الحروب بين العثمانيين وأعدائهم في جنوب شرق أوروبا ومنتصفها ، هذا بالإضافة إلى الحروب البحرية الدائمة في البحر المتوسط التي تركت بعضاً من المسلمين والمسيحيين أسرى .

بدأت بعد ذلك البعثات الإسلامية تذهب إلى إسبانيا ، وبعض الدول الأخرى في محاولة لإطلاق سراح أسرى المسلمين .

وعند عودة المسيحيين من الدولة العثمانية (من شرق أفريقيا بالتحديد) وصفوا تجربتهم القاسية في الأسر بين هؤلاء الأعداء الذين عاشوا بينهم ، أما المسلمون الذين عادوا إلى بلادهم من الأسر ، فلم يتركوا انطباعاً محدداً للآخرين .

وقع بعد ذلك حادثان هامان ، أولهما في نهاية القرن السادس عشر ، عندما وقع القاضي التركي أسيراً في أبريل عام ١٥٩٧ في أيدي فرسان القديس جون ، وكان القاضي في طريقه إلى قبرص ليتولى أحد المناصب المهمة ، فأسر ، ونفي إلى مالطة لأكثر من عامين ، وقد نشرت بعد ذلك نبذة عن فترة أسره اختيرت من المخطوط الفريد ، الذي سجل فيه حادثة أسره [٤] .

أما الحادثة الثانية فهي تتعلق بشاب يدعى "عثمان أغا" وهو أسير حرب تركي ،

أصبح مترجماً يعمل في خدمة الدولة العثمانية ، وقام بكتابة بعض الأعمال التي تتعلق بسيرته الذاتية في الأمر ، وكان ذلك في الفترة من ١٧٢٤ إلى ١٧٢٥ ، مما أثار اهتمام بعض من المؤلفين العثمانيين - في هذا المجال الأدبي - إلى مصنفات المؤلفات والفهارس (وهي نوع من أنواع دراسة أوصاف الكتب وطباعتها وفهرستها) لقد حفظ كل هذا في مخطوطتين نادرتين ، واحدة في لندن ، وأخرى في فيينا Vienna ولم يعرف أحد عنها شيئاً ، حتى اكتشفتها مجموعة من الدارسين [٥] . وهكذا يمكنك أن تلاحظ أن الأسرى العائدين إلى بلادهم كانوا يمثلون مصدراً مهماً للمعلومات الجديدة عن أوروبا .

وكان أهم الجماعات الرحل في ذلك العهد : التجار والدبلوماسيين ، وهاتان الفئتان تستحقان التريث أمامهما وتفصيل وصفهما .

استطاع المسلمون أن يضربوا المثل الأعلى في سن القوانين وتطبيقها ، وإطاعة الشرع ، والتمسك بالتقاليد أثناء ترحالهم إلى البلاد الأوروبية . واستطاعوا كذلك استيراد السلع المتعددة من الهند ، وجنوب شرق آسيا والصين (مثل الحرير والتوابل والمعادن والعطور والفخار) ، وتمكنوا من جلب بعض السلع الرئيسية من افريقية السوداء (مثل الذهب والفضة) ؛ مما ساعد على مد شبكة التبادل التجاري مع الإمبراطورية البيزنطية ، وشرق شمال أوروبا ، حيث كان يتم استيراد الفراء والكهرمان ومنتجات الأسماك ، وكذلك العبيد . وكانت معظم هذه العمليات التجارية تتم في منتصف شرق أوروبا وافريقيا ، وقلب آسيا ، وإلى جانب هذه السلع الأوروبية ، وجدت العمليات التجارية المتعلقة ببيع السلاح والصوف الإنجليزي التي كانت تتم حتى نهاية العصور الوسطى ، وبداية العصر الحديث الذي تطورت فيه الصناعات ، وبدأ نظام المستعمرات يشق طريقه إلى العالم الجديد ، وهذا يكاد يوضح إلى أي مدى بلغ التبادل التجاري بين أوروبا وبلدان العالم الإسلامي .

ظهرت بعد ذلك عوامل ، أخذت تحد من ارتحال المسلمين إلى جنوب أوروبا ، منها : عنت حكام وشعوب هذه البلاد وعدم تسامحهم مع المسلمين .

في هذه الأقاليم التي كانت تضرب عليها الوثنية بجرانها أجبر المسلمون المقيمون فيها على ترك الإسلام ، فإما التنصر أو النفي أو الموت .

أما اليهود الذين عاشوا في أوروبا في العصور الوسطى ، فلم يشجعوا أحداً على الاستقرار والإقامة بينهم ، مما صعب الموقف بالنسبة للمسلمين الذين يرغبون في ممارسة شعائرهم كبناء الجوامع ، والحمامات ، وذبح الحيوانات وإعدادها حسب الشريعة الإسلامية وبعض المتطلبات الأخرى التي تتعارض مع هذه المجتمعات غير المسلمة .

ولقد ترك أسامة بن منقذ - وهو سوري مسلم - مجلدات مهمة خاصة ببعض الذكريات التي ذكر فيها - وكان ذلك في القرن الثاني عشر - أن أحد جيرانه في سوريا كان من فرسان الفرنجة ، وقد أنشأ معه صداقة طيبة ، وقبيل رحيل الفارس إلى بلاده.. اقترح على أسامة أن يسمح لإبنه البالغ من العمر أربعة عشر عاماً في أن يرافقه إلى بلدته ليعيش بين الفرسان ، ويتعلم الفروسية والحكمة .

كان الفارس يظن أن هذا الاقتراح تقدير منه لـلصداقة التي بينه وبين أسامة ؛ أما أسامة فرأى أن هذا اقتراح سخيف ، وكلام ينفيه العقل ، يتفوه به رجل يتحدث عن الحكمة ، فكيف أن يترك ابنه يؤخذ ، وكأنه أسير حرب يساق إلى أرض الفرنجة ؟

قال أسامة للفارس : كنت أفكر في هذا الأمر ، ولكن الذي يمنعني عن الموافقة أن جدة الغلام تحبه حباً جارفاً ، ولا تسمح له بالخروج معي إلا إذا أقسمت بأنني سأعود به إليها .

فقال له الفارس : أما زالت أمك على قيد الحياة ؟

فقال أسامة : نعم .. فقال الفارس : إذن يجب أن لا تعصى أمك [٦] .

مما سبق نستنتج أن الرحلات إلى أوروبا لم تكن مهمة للتجارة أو الأغراض الدبلوماسية فقط ، ولكن لتوطيد العلاقة أيضاً ؛ لذلك فقد كان حكام المسلمين يفضلون إرسال أحد أتباعهم من المسيحيين أو اليهود ، الذين يمكنهم إنشاء اتصالات مع المجتمعات الدينية التابعة لها أوروبا ، وخلف حدود الأراضي الإسلامية ، وبالتالي ..

openkanagi.com

يمكن للمسيحيين واليهود الذين يعيشون في أوروبا الانتقال إلى الأراضي الإسلامية .

إن التاريخ الإفرنجي يؤكد القصة المشهورة عن تبادل السفارات بين شارلمان وهارون الرشيد بدوره بعثتين دبلوماسيتين مماثلتين في نفس العامين .

ويقال أيضاً إن ملك الإفرنجة قام بإرسال بعثتين إلى البطريارك المسيحي في أورشليم عام ٧٩٩م - وربما عام ٨٠٢ - وقام باستقبال أربع بعثات أرسلها البطريارك فيما بين عامي ٧٩٩م و ٨٠٧ [٧] - ولكن هذه البعثات لم تذكر في تسلسل الأحداث العربية ، ويبدو أن ذلك لعدم أهميتها .

لم يذكر التاريخ العربي سوى السفارة الغربية التي أرسلتها ملكة الإفرنجة (بيرثا) إلى الخليفة المكتفي في بغداد عام ٩٠٦م ، وقد جاء بالقصة التي ذكرها المؤرخ العربي "أن الملكة بيرثا ابنة لوثر ملكة الإفرنجة والدول التابعة لها ، قامت بإرسال هدية إلى المكتفي بالله خليفة بغداد مع على الطواشي (الخصي) - وهو أحد خصيان بن زياد الله بن غلاب بين عامي ٢٩٣ و ٩٠٦م - وكانت الهدية تتكون من خمسين سيفاً ، وخمسين درعاً ، وخمسين حربة ، وعشرين رداء من الصوف عليهم وشي من الذهب ، وعشرين من الصقالبة ، وعشرين من الإماء الحسان ، وعشرة من الكلاب القوية التي تفتك بالوحوش ، وسبعة صقور ، وسبعة عقبان ، وخيمة من الحرير ومتعلقاتها ، وعشرين ثوباً من الصوف الذي تتقلب ألوانه في ضوء الشمس ، فيبدو كقوس قزح ، وثلاثة من الطيور النادرة التي تتميز بها أراضي الإفرنجة ، وهي الطيور التي تستطيع تمييز الطعام المسمم من غيره ، إذ إنها تطلق صرخات غريبة وتحرك أجنحتها بطريقة تلفت الأنظار لمثل هذا الخطر .

قام على الطواشي بتسليم هذه الهدية ، ومعها رسالة من الملكة إلى المكتفى بالله خليفة بغداد تطلب فيها الزواج منه ، والصداقة معه .

ولم تحقق هذه السفارة كثيراً ، فلا صداقة ، ولا زواج [٨] .

وهناك تقرير دبلوماسي مبكر عن سفارة دبلوماسية متبادلة بين العرب في إسبانيا

والفايكنج على الأندلس ، وفي المرحلة الأولى للحرب . . استطاع الطرفان المتنازعان توقيع معاهدة صلح ، فقد أرسل الفايكنج بعثتهم إلى السلطان المسلم عبد الرحمن الثاني ، أمير قرطبة ، يطلبون الصلح ، فأرسل لهم السلطان - بالمثل - بعثة دبلوماسية ، اختار لها يحيى بن الحكم البكري سفيراً ، وهو الملقب بالغزال لوسامة وجهه . ويحكى أن يحيى بن الحكم حدث صديقه تمام بن علقمة بهذه القصة ، ثم سردها هذا الأخير على ابن دحية المؤرخ العربي .

ويقال أن السفارة كانت في بلاد أيرلندا أو الدانمارك ، وقد انقسمت الدراسات الحديثة حيال هذه القصة بين مصدق ومكذب .

أما الغزال فلم يذكر لنا أين كانت سفارته بالضبط ، إلا أنه يؤكد وصوله إلى بلاط الفايكنج ، وكيف أنه استطاع الحفاظ على شرفه ، ومكانة الإسلام بالرغم من محاولات أعدائه للتقليل من مكانته : "وبعد يومين من وصول البعثة . . استدعاهم الملك إلى رؤيته ، فاشترط الغزال عليه ، ألا يسجد له ، ولا يخرجهما على شيء من سنتهما - هو ورفيقه يحيى بن حبيب -، فأجابهما إلى ذلك ، فلما مشيا إليه قعد لهما في أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذي يفضي إليه فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً ، فجلس الغزال على الأرض ، وقدم رجليه في الدخول ، فلما جاز الباب استوى واقفاً ، والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعر ، بل قام ماثلاً بين يديه ، فقال :

"السلام عليك أيها الملك ، وعلى من ضمه مشهدك ، والتحية الكريمة لك ، ولازلت تتمتع بالعز والبقاء والكرامة المفضية إليك إلى شرف الدنيا والآخرة ، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم ، الذي كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه المرجع " ففسر الترجمان ما قاله فأعظم الكلام وقال : هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم ، وعجب من جلوسه على الأرض ، وتقديمه رجليه في الدخول ، وقال : " أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه ، لولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه" (9) .

وهذا النص يذكرنا بـرواية سردها بعض المبعوثين الأوروبيين إلـى أراضي البربر في الشرق ويواصل المؤرخ حديثه ذاكراً أن الغزال عندما كان يجادل نظراءه في بعض الأمور فإنه كان يبكتهم ويفحمهم .

وكانـت هـذه البـعـثة الـتي رأسـهـا الغزال واحدة مـن عديد من بـعثات التـبادل الدبلوماسي بين المسـلمين أو المسيحيين فـي إسبانيـا وشمال أوروبا ، هذا إذا كانت قد حدثت بالفعـل .

ويقال إن هناك بعثة مسلمة واحدة ، هي التـي أرسلها خليفة قرطبة إلى الإمبراطور المقدس في منتصف القرن العاشر ، وهي مدونة بالمستندات الرسمية الخاصة بذلك .

ظهرت جمـاعة من القراصنة المسـلمين الذين تمركزوا بمـدينة في Alpine Passes وجلسـوا بالممرات ثم كانـوا يفاجئون طرق المـواصلات بغاراتهم المـستمرة ، فيقـطعون الطريق على القوافل الآتية من إيطاليا أو الذاهبة إليها . وفي عام ٩٥٣ أرسل الإمبراطور أوتو الكبير بعثة دبلـوماسية إلى خليفة قرطـبة ، يطلب منه المساعـدة واستدعاء هؤلاء المسلمين إلى بلادهم . بـعد ذلك وفي ظروف غير معلومة قام الخليـفة بإرسال بعثة إلى ألمانيـا ، وكان أحد أعضائهـا إبراهيم بن يعـقوب الإسرائيلـي الطرطوشي ، نسـبة إلى طرطوشة ، وهي بلدة صغيرة على ساحل قطالونيا بجوار برشلونه (١٠) ، ولم يعرف ما إذا كان إبراهيـم عضواً في البعثة الـدبلوماسية أم كان السـفير ، ويبدو أنه كان طـبيباً . وعلى أية حال ، كان إبراهيـم كثير الترحال ، انطلق إلى فرنسا ، ومـنها إلى هولنده ، ثم إلى شمال ألمـانيا وبوهيميا وبولنـده ، وربما كانت عودته عن طريق شمـال إيطاليا ، ويبـدو أنه قام بـتدوين رحـلاته وتنـقلاته خـلال أوروبا ، ولسـوء الحظ فقـدت هذه المذكرات ، إلا مـا دونه منهـا جغرافي أندلـسي عربي الأصـل في القرن الحـادي عشر الميلادي ، اسمه البكري وله زميل آخر اسمه أودري .

لقد استطاع البـكري أن يحافـظ على ما جـاء في رواية إبراهـيم بن يعـقوب عن رحلاته إلى بلدان سلاف - حالياً بولنده - ، وألمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا . وتعد هذه الرواية مصدراً مهماً من مصادر التاريخ المبكر مثل هذه البلدان .

أما أعمال زميله أودري Udhri فقد فقدت أيضاً ، ولم يبق منها إلا المقتطفات التي منها ما يتعلق بوصف ألمانيا وغرب أوروبا ، والتي اقتبسها القزويني Qazvini الجغرافي الفارسي الأصل في القرن الثالث عشر (الميلادي) .

ويقول البكري أن مصدر روايته كان إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي .

أما القزويني فقد أشار إليه - ببساطة - باسم الطرطوشي ، ولذلك اعتقد لفترة طويلة أنهما شخصان ، أحدهما يهودي والآخر مسلم ، وقد استطاع جورج يعقوب ، وهو ألماني الأصل بعد دراسة لهذه النصوص أن يتبين أن هناك اختلافات جوهرية وعرقية بين الشخصين ، وقد توصل من هذه الاختلافات إلى ملاحظات مهمة أدت في النهاية إلى توضيح أن جوهر الاختلاف يرجع إلى أن أحدهما دبلوماسي عربي والآخر تاجر يهودي [١١] . ولكن تاديوس كلوفالسكي استطاع إثبات أنهما شخص احد عندما ربط بين روايتي البكري والقزويني ، وأشار إلى أن مصدرهما واحد .

وهناك بعض الشكوك تتعلق بشخصية إبراهيم بن يعقوب ، أهو مسلم أم يهودي ، أم هو مسلم من أصل يهودي ؟ وقد ساعد اسمه الذي يشترك فيه المسلمون واليهود على هذا الاضطراب . ولا تذكر الرواية متى كانت زيارته للإمبراطور أوتو الكبير ، ويبدو من تاريخ رحلاته إلى إيطاليا أنه التقى به عام ٩٦٥م بناء على أوامر الخليفة في قرطبة ، أو بناء على طلب الإمبراطور لإرسال سفارة إلى الأندلس عام ٩٥٣ [١٢] . ويمكن ملاحظة أن رواية إبراهيم بن يعقوب عن غرب أوروبا متفوقة على ما سبقها من روايات ، وذلك من عدة زوايا ، فقد استطاعت تقديم صورة كاملة رغم أنها على شكل مقتطفات ، فقد جمعها رجل محترف متخصص في تجميع القصص المطولة .

ومن ثم نلاحظ أن المسلمين لم يذهبوا لـلقاء الأوروبيين ، بل لجأ الأوروبيون إليهم سعياً في عصر الحروب الصليبية ، إذ استطاع الصليبيون الاستيلاء على بعض الأراضي الإسلامية وحكمها من إسبانيا إلى فلسطين ، فكانت هذه فرصة للمسلمين كي يلتقوا

obeikandl.com

بثقافة الإفرنجة وأساليبهم ، دون أن يتركوا أراضيهم للسعي خلف هذه المعرفة وراء حدود بلادهم .

يسرد علينا أحد المؤرخين العرب رواية إرسال بعثة دبلوماسية أخرى إلى ملوك الحملة الصليبية في أقصى حدود الأرض لبلدان مثل صقلية وجنوب إيطاليا ، تلك البعثة التي أرسلها السلطان المصري الظاهر بيبرس إلى الحاكم الصقلي "مانفريد" عام ١٢٦١م ، وكان على رأس هذه البعثة المؤرخ السوري المعروف باسم جمال الدين بن واصل ، والذي استطاع أن يصفها في أعماله الخاصة التي سجلت الأحداث من عام ١٢٠٧ إلى ١٢٩٨م ، التقى ابن واصل بالحاكم الصقلي مانفريد في مدينة بارليتا ووصف مانفريد بأنه رجل متميز في أموره محباً للعلوم التأملية ، يحفظ - عن ظهر قلب - البديهيات العشر التي جاءت في كتاب إقليدس في الهندسة . وكان من المعروف أن مانفريد صديق للمسلمين الذين في حاشيته ، وقد سببت له هذه الصداقة كثيراً من المتاعب أثارها البابا [١٣] .

والدليل على صحة هذه والرواية أن المؤرخ الذي قام بتدوينها هو عينه السفير الذي قام بهذه البعثة ، ولكن يبدو أن هذا السبب غير كاف لوجود عديد من المؤرخين داخل البعثة الدبلوماسية .

ولكن ليس هناك من المؤرخين من يعتبر أعظم من المؤرخ ذائع الصيت ابن خلدون الذي أرسل في بعثة دبلوماسية لمقابلة الحاكم بيدو الأول ، في مدينة كاستيل في الفترة ما بين ١٣٦٣ - ١٣٦٤ [١٤] .

إن أهم الأحداث والروايات هي تلك التي ذكرها أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨) ، والتي تتعلق بكيفية ترك الحروب الصليبية أثرها الكبير على المسلمين في الشرق الأوسط .

يواصل أسامة حديثه عن علاقاته مع جيرانه من الإفرنج ، الذين كان يشعر باحتقار نحو أساليبهم البربرية ، وكيف استطاعت أساليب المسلمين أن تضيف شيئاً جديداً

لثقافتهم وأكسبتهم كثيراً من الحضارة . يواصل أسامة حديثه ذاكراً أنه أرسل أحد المغامرين إلى مدينة أنطاكية التي يحتلها المسيحيون في مهمة عمل ، فيصف حياتهم قائلاً :

"ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من قريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شواذ لا يقاس عليه . نحو ذلك أنني نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل . وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي ، وبيني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكية فقال لصاحبي يوماً : "قد دعاني صديق لي من الإفرنج . تجيء معي حتى ترى زيهم" قال: "فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق ، الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج ، وقد أعفي من الديون والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورآني متوقفاً عن الأكل فقال : كل طيب النفس . فأنا ما آكل من طعام الإفرنج . ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير . فأكلت وأنا محترز وانصرفنا" .

فبينما كنت أجتاز السوق ، وإذا بامرأة إفرنجية تتعلق بي ، وهي تنطق بلسانهم وما أدري ما تقول فاجتمع علي خلق من الإفرنج ، فأيقنت بالهلاك . وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني . فجاء فقال لتلك المرأة : "مالك ولهذا المسلم ؟ قالت : هذا قتل أخي عرسي وكان عرسي هذا فارساً بأفاميه قتله بعض جند حماة فصاح عليها ، وقال: هذا رجل برجوازي (أي تاجر) لا يقاتل ، ولا يحضر القتال : "وصاح على اولئك المجتمعين ، فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى ، فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل" [١٥] .

إن هذه الرواية الخاصة بأسامة تعتبر من القصص الأدبية ، التي مع الأسف لاوجود لها هذه الأيام ، بل تعتبر نادرة في عالم الإسلام ، ولكن هناك بعض الروايات القليلة التي تظهر الانطباعات الشخصية من خلال الاتصالات مع المسيحين الأوروبيين . وهذه الرواية الخاصة بأسامة تعتبر من الروايات المعاصرة لهذه الأحداث [١٦] . أيضاً

أبو حامد (*) أهم ما لفت نظره في شرق أوروبا هو مدينة روما ، التي كانت مصدره الأدبي . بعد ذلك انتقل من هناك إلى منتصف أوروبا ، ولكنه لم يتعد سهول بلغاريا . وبرغم أنه لم يذكر الكثير . . إلا أنه ظل من العلامات البارزة في تاريخ معرفة المسلمين لأوروبا ؛ لأنه الرحالة المسلم الوحيد الذي استطاع الذهاب إلى أوروبا "بمحض إرادته للدراسة وليس في مهمة رسمية" ؛ ليظل اسمه وكتاباته معروفة للجميع في القرن العاشر .

هناك أيضاً رحالة آخر من أقصى أسبانيا ، وقد قام بزيارة سوريا عام ١١٨٤ وبلاد الإفرنجة أيضاً ، وكان من الأماكن التي مر من خلالها مدينة عكا وهي الميناء الرئيسي للصليبيين يقول : "إن مدينة عكا دمرها الله وأعادها (للإسلام) هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة (والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية) ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام . تستعمر كفراً وطغياناً ، وتفور خنازير صلباناً ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجساً وعذرة" (١٧) .

ويبدو هنا أن ابن جبير يشير إلى الدنان المملوءة خمراً وإلى الخنازير ، وآلات العزف ، والكنائس ، والأشياء الأخرى التي تؤذي عين المسلم في ذلك العهد ، لأن المسلمين كانوا يتمسكون بعقيدتهم وإيمانهم الإسلامي أكثر من المسيحيين الأوروبيين ، لذلك فإن الزوار المسلمين الذين توجهوا شطر أوروبا في بداية القرن التاسع عشر ، كانوا يعلقون على خصومهم الأوروبيين قائلين : إنهم يفتقرون إلى مبادئ الصحة والنظافة الشخصية . لذلك لم يكن ابن جبير يسعد بكل ما يراه في بلدان الإفرنجة . ولكنه كان يسعد برؤية طقوس الزفاف المسيحية في مدينة صور خصوصاً ، عندما تلفت نظره العروس الجميلة فيعقب :

(*) أبو حامد (١٠٨١ - ١١٧٠) هو أحد مسلمي مدينة غرناطة بإسبانيا ، وكان عالماً في الجغرافيا . ولقد استطاع هذا العالم القيام برحلة طويلة خلال الشمال إلى روسيا ، ومن روسيا توغل تجاه الغرب إلى أوروبا ، ثم إلى بلغاريا التي قضى بها ثلاثة أعوام (المترجم).

obeikandi.com

"وهي رافلة في رحيلها وحللها ، تمشي فترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر" [١٨] .

كانت هناك أشياء أخرى تلفت أنظار ابن جبير غير جمال العروس الإفرنجية ، فقد لاحظ أن الإفرنجه يعاملون الفلاحين المسلمين بالإنسانية والعدل أكثر من جيرانهم المسلمين "إن ما رأيته يجعل قلوب المسلمين تمتلئ حزناً ، رأيت المسلمين يعاملون إخوانهم من المسلمين بطريقة غير مشروعة ، ورأيت الأسياد من الإفرنجة يعاملون المسلمين بالحسنى والعدل ، لذلك تجد العامة من المسلمين - لسوء الحظ - يتذمرون على حكامهم المسلمين ويشكون الاضطهاد ويمجدون سلوك خصومهم وأعدائهم لهم . إنهم الإفرنجة الذين فتحوا بلادهم وقاموا على ترويضهم وهم الذين يحسنون معاملتهم فليس غير الله يشكون إليه" [*] .

إن هذه الملاحظة التي ذكرها ابن جبير ، ومن قبله أسامة وأبو حامد تعد شواهد تمثل ظواهر معزولة ، ليس لها سوى تأثير بسيط على تطور معرفة المسلمين بالغرب .

أما العامل المهم في ذلك التطور .. فهو نمو وازدياد العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا ، وعلى وجه الخصوص غرب أوروبا مع البلدان الإسلامية التي في الشرق الأوسط وشمال افريقيا ، هذا بالإضافة إلى التجارة التى ساعدت على توثيق العلاقات الدبلوماسية بين المسلمين والأوروبيين (في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا ونيوزلاندا وانجلترا) [٢٠] .

وهكذا .. يمكنك أن تلاحظ أن التبادل التجاري ساعد على تطور العلاقات الدبلوماسية بين بلاد المسلمين والأوروبيين .

ظهرت مصر الدولة ذات المركز المستقل والمكانة الواضحة في العالم الإسلامي ؛ حيث كانت المنافسة شديدة بين الشرق والغرب في الشرق الأوسط وبين الأنظمة الحاكمة

(*) هذا النص لم نجده في رحلة ابن جبير . (المترجم) .

في وادي النيل ، تلك التي كانت تسيطر على سوريا وفلسطين أيضاً ، والتي كانت تجد التأييد من العراق وإيران .

والذي أزاد من حدة التنافس في المنطقة ظهور المغول في القرن الثالث عشر ؛ حيث إضافت بذلك قوة جديدة ضد الإسلام في الشرق ، وزاد من أمل مسيحيي أوروبا في وجود حليف لهم ، يمكن أن يفتح جبهة جديدة ، ولكن خابت ظنونهم عندما اعتنق الخان في بلاد الفرس الدين الإسلامي وأصبح مسلماً [٢١] ، على هذا لم تثمر الاتفاقات التي كانت بين أوروبا وحكام المغول عن أية نتائج مثمرة ، ولكنها لفتت أنظار الحكام المماليك في مصر إلى الاهتمام بأوروبا عن طريق إقامة علاقات دبلوماسية مع المسيحيين .

وفي عام ١٣٤٠ قام أحد المسئولين المصريين اسمه شهاب الدين العمري [*] ، بوضع كتيب للمراسلات الدبلوماسية ، يمكن الاستعانة به في مجالس القضاء الملكي المصري [٢٢] ، ووضع به قائمة توضح الأراضي ذات السيادة ، والملوك الذين لهم علاقة دبلوماسية ومراسلات مع سلطان مصر ، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم كإمبراطور بيزنطة ، وملوك جورجيا وأرمينية ، والصرب وسنوب وردس ، ولكنه لم يذكر من أسماء حكام الغرب سوى اسمين فقط ألفونسو ملك الأندلس ، وريد فرانس ، وهذا الأخير يمثل ملك فرنسا في اللغة القومية (الرومانية) ، ولكن لم يعرف كيف استطاع المؤلف أن يفهم هذه العبارة .

بعد ذلك ظهر كتاب آخر للعمري اسمه التثقيف ، ذكر فيه بعضاً من الأسماء منها البابا وحكام جنوا والبندقية ونابلس .

وفي الجزء الثاني ذكرت العناوين التي تخدم في المراسلات الصادرة عن ملوك مصر

(*) لم نجد هذا إلا في الجزء الثامن من (صبح الأعشى) للقلقشندي ، وليس في الخامس ، ط. المطبعة الأميرية - القاهرة - المقصد الرابع من ص٤٢ ، وفيه أحد عشر مكاتبة ، وليس خمس مكاتبات فقط ، والمكاتبة الخامسة هنا هي رقم (١١) في صبح الأعشى ، ويبدو أن الكاتب اطلع على صبح الأعشى في نسخة ناقصة ، أو عن طريق مرجع وسيط . (المترجم) .

obeikandl.com

طبقاً للبروتوكول المعمول به والمتفق عليه مع الملوك غير المسلمين (كالإفرنجة ، واليونانيين ، والأحباش . . الخ) [٢٣] .

ثمة رجل آخر من رجال الدولة المسئولين يلقب بالقلقشندي [*] ، استطاع مناقشة أمور ملوك الشرق المسيحيين من البلقان وإسبانيا ، واستطاع أن يتصل - في الجزء الخامس من كتابه - إلى أنه عند استخدام المراسلة مع الملوك شمال روما الإفرنجة ، يراعى أن تكون المراسلة حسب اختلاف أجناسهم ومكانتهم . وديانتهم جميعاً الملكانية :

١- مكاتبة الباب (البابا) وهو بطريرك الملكية .

٢- المكاتبة إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية .

٣- المكاتبة إلى حكام جنوة .

٤- المكاتبة إلى صاحب البندقية .

٥- المكاتبة إلى صاحبة نابل [*] [٢٤] .

ومن خلال هذا العمل الخاص بالقلقشندي ، وبعض المراجع القليلة الأخرى التي في سجل أحداث التاريخ . . يمكننا أن نلاحظ أن المراسلات مع ملوك أوروبا كانت نادرة إلى حد ما ، ويبدو أن المسلمين في نظرتهم إلى البعثات الدبلوماسية إلى أوروبا ، كانوا يشاركون في ذلك المغول [٢٤] ، الذين قالوا :

"إننا عندما نريد عقاب أحد المجرمين [**] المستحقين للموت فإننا نرسلهم سفراء لنا إلى الأراضي الأجنبية حيث المناخ غير الصحي ، وعدم العودة بأمان كي نتخلص منهم" [٢٥] .

(*) القلقشندي هو أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ ، وأشهر كتبه : صبح الأعشى في صناعة الإنشا" الذي كتبه بديوان الإنشا بمصر ، ورتبه إلى مقدمة وعشرة مقالات وخاتمة ، وقد نشر في القاهرة في ١٤ جزءاً سنة ١٩١٣ - ١٩١٥م (المترجم) .

(**) هذه مغالطة من المؤلف ، فالمسلمون معروفون بحسن انتقائهم لسفرائهم ، والاهتمام بذلك . (المترجم) .

وخلال عصر النهضة الأوروبية (من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر) والاكتشافات العظيمة . . ازداد اهتمام الأوروبيين بالعالم الإسلامي ، بينما لم يعد الإسلام يشكل منافسة للمسيحية ، ولكن الإمبراطورية العثمانية ما برحت تكن العداء لهم ، فبدأت في الزحف إلى قلب أوروبا ؛ مما أوشك على تهديد بقاء المذهب النصراني .

وفي القرن السادس عشر ظهرت قوة جديدة معادية للإسلام ، هي قوة زعماء الشيعة من أسرة الصفويين ، في إيران ، حيث شكلت بعض المتاعب للإمبراطورية العثمانية في ذلك العهد الذي تدفق فيه الأوروبيون ، باكتشافاتهم العظيمة التي أنجزوها ، إلى كل من إفريقية وآسيا وأمريكا ، بعدها بدأت المراحل الثقافية والأدبية تأخذ مسيرتها الطبيعية بعد ظهور النهضة الأوروبية ، فامتدت إلى البلدان المجاورة ، ثم انتشرت المصانع الأوروبية ، وتزايد استيراد السلع من المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد ، والتصدير إليها ؛ مما شجع التجار الأوربيون على النظر إلى الشرق الإسلامي بصفته أعظم الأسواق ، التي تساعد على رواج سلعهم المختلفة ، وهذا بدوره ساعد على زيادة حدة التوتر (التنافس) التجاري والسياسي بين الدول العربية على بلدان الشرق الأوسط .

بعد ذلك . . حدث تطور جديد ، إذ ضمت اسطنبول إلى العاصمة العثمانية ، وفي نهاية القرن السادس عشر ، أخذت معظم الدول الشرقية والغربية ترسل مبعوثيها بانتظام إلى مدينة اسطنبول ، وأقيمت علاقات وبعثات دائمة معها ، ونذكر منها البندقية ، وفرنسا ، وانجلترا .

وفي بداية القرن السابع عشر ضم العثمانيون بعضاً من البلدان الأخرى إليهم ؛ مما تسبب في استقرار بعض الأسر الأوروبية المتوسطة ، والراقية في العاصمة العثمانية ، التي كانت تستعين بغير المسلمين في تأدية بعض الأعمال المعينة .

وكانت هناك ثلاث طوائف أو جاليات تعيش بين المسلمين - في الإمبراطورية

العثمانية - هم : اليونانيون والأرمن ، واليهـود . ثم ظهرت طائفة جديدة معظمها من المسيحيين الكاثوليك ، ولكن جنسياتهم مـختلفة ، وهم يتحدثون عدة لغات مختلفة ، كالإيطالية واليونانية . . الخ . وكان كل منـهم يدعى أنه من دولة معينة بأوروبا ، لأنه كان يطلـق عليه في هذه الأيـام اسم (ليانتنس) أي مـن سكان البلاد الواقـعة في شرق البحر الأبيض المتوسـط ، وكانوا يطلقون عليهم في تركيا اسـم (تابسوفرنجي) أي إفرنجة من بلاد الميـاه العذبة ، ليمـيزوا بينهم وبـين الفرنجة من بلاد المـياه المالحة (بلدان الـبحر المتوسط).

أما العلاقة الـدبلوماسية مع كل من إيـران والمغرب فقد تطورت إلى مـوقف يتسم بالجمود بعض الشيء ، فقد أرجئت زيادة المبعوثين لهذين البلدين ، في ضوء التطورات الحادثة ، إلى أجل غير محدود .

ولقد شجع التبادل التجاري والدبلوماسي بين أوروبا ، والدول الإسلامية كثيراً من الأوروبيين على الإقامة بالـبلدان الإسلامية ، فاختلطوا مع باقي مـجتمعات دول الشرق الأوسط ؛ مما ساعد على زيادة المستشرقين ودراساتـهم وتطلعاتهم إلى هذه البلدان . ثم أصدرت كتب عربيـة في بعض المطابع الأوروبية ، من الـتي يعتمد عليها مـعظم القراء المسلمين بكونها مراجع لهم .

ولكن تواجد هذه الطوائف الأوروبية - سواء من التجار أو الدبلوماسيين أو غيرهـم - وكانت تعيش في عزلة عن الدول الإسلامية (أي مـن معتقداتها وتقاليدها) ، ولذلك لم يستعن بهم المسـلمون إلا من أجل الوساطة؛ حيث استعانت الدولة الـعثمانية بهؤلاء الأوروبيين بوصفـهم وسطاء ؛ لأن مثل هذه المهام تحـتاج إلى مهارة معينـة غير موجودة لدى المسلمين ، الذين لم يهتموا باكتسابها .

بعد ذلك ظهـر نوع من التجارة ، كان يسـمى حينذاك "بالتجـارة القذرة" ، وهذا يعني التعامل في تجارة غير المؤمنين بالإسلام ، وبيع منتجاتهم ، وقد برع في هذا النوع

من التجارة عدد من الطوائف على رأسها الطائفة اليهودية والمسيحية ؛ خصوصاً في المهام الدبلوماسية ، وأعمال المصارف ، والتجسس .

ويعد القرن السادس عشر نقطة التحول المهم في مكانة الأتراك ومواقفهم تحت قيادة بعض السلاطين ؛ فقد تزوج الأمراء العثمانيين من الأميرات المسيحيات ذوات الأصل البيزنطي الأرستقراطي ، وثمة سجلات ومحفوظات توضح ذلك ، كما توضح ارتباطهم ببعض الأسر الحاكمة والأسر العسكرية .

بعد ذلك . ازدادت الصداقة والعلاقة بين المسلمين ودول أوروبا ؛ ففي الفترة ما بين القرن السادس عشر ، وبداية القرن التاسع عشر . . نجد أن العرب الشرقيين كانوا يعتمدون تماماً على العثمانيين في الاتصالات السياسية مع أوروبا ، وإيران ، وبعض دول الشرق ، فأي معلومة تصل إلى العرب . . كان لابد أن تمر خلال القنوات العثمانية الرسمية .

وسرعان ما تطورت العلاقات بين الدول العثمانية وأوروبا ، وكانوا يعتمدون في ذلك على الوسطاء وما يقومون به حيال هذه القضايا المهمة والتي كانت تتطلب مهارة دبلوماسية خاصة ، كانت تمتاز بها بعض الطوائف التي جاءت من أوروبا . وثمة شيء آخر هو كون هؤلاء الوسطاء من أهالي هذه الأقاليم الأوروبية . وكان معظمهم من اللاجئين اليهود ، وقد ساعد على تجمع اليهود في الدول العثمانية ، الاضطهاد الذي عانوا منه في إسبانيا والبرتغال والأراضي الخاضعة للحكم الإسباني ، مما أدى إلى توجه مجموعات كبيرة من اللاجئين اليهود الأوروبيين إلى الدول الخاضعة للحكم العثماني واستقرارهم بها ، في أواخر القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر ، وكان معهم ثروة كبيرة من اللغة ، والمهارات والمعرفة والفنون والحرف .

وفي عام ١٥٥١م قام الرحالة الغربي نيكولاس دي نيكولاي بزيارة تركيا ، ودوّن ملحوظات مهمة استطاع استنباطها خلال حكم الإسبان والمارونيين البرتغاليين (طائفة

مسيحية) ، الذين أرغموه على اعتناق النصرانية ، فهرب إلى تركيا ليعود إلى اليهودية فقال :

"إن الأتراك يتمتعون بذوق رفيع في الفنون ، فبينهم من يمارس الفن ، وبعض الصناعات التي تحتاج إلى مهارات معينة ، وخصوصاً هذه الطائفة (المسيحية) من المارونيين الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال لأسباب دينية ، والذين قاموا بتعليم الأتراك عدداً من الاختراعات المختلفة مثل الماكينات والآلات ، ومعدات الحرب والصناعات الحربية ومنها صناعة المدفعية والبارود والقذائف ، وعدد كبير من الأسلحة المختلفة ، وقاموا بإنشاء المطابع التي لم يتعود هذا الإقليم رؤيتها من قبل ، ولكن لم يكن يسمح لهم بالطباعة باللغة التركية أو العربية" (٢٦) .

وبذلك استطاع اليهود كسب ود المسلمين ، وأصبح لهم ميزة على المسيحيين ، فكان الأتراك يثقون كثيراً بذكائهم اللماح ، ومهاراتهم في القضايا السياسية والاقتصادية الحساسة ، والدليل على ذلك أنه بمجرد فتح الأتراك لقبرص .. قاموا على الفور بتسليم الجزيرة (التي بها طوائف مختلفة من اليونانيين المسيحيين الأرثوذكس ، والإيطاليين الكاثوليك) إلى بعض الأسر اليهودية لتحكم جزيرة قبرص (٢٧) . وكان غرض الدولة التركية من ذلك أن تضمن للإنتاج الصناعي في التجارة في هذه الجزيرة التوسع والامتداد والازدهار ، تحت إشراف اليهود الذين يمتازون بمهارات تساعدهم على تطوير هذه الجزيرة التي لا تعتبر يونانية أو إيطالية أو مسيحية ، ولكنها فقط كانت جزيرة تتعاطف مع مسيحيي أوروبا . وكان اعتماد الدولة التركية في الاتصال بالغرب على اليهود أكثر من اعتمادهم على أي طائفة أخرى مثل اليونانيين أو الأرمن (٢٨) .

وهكذا ، تمكن اليهود بذكائهم من إقامة وتطوير مستعمرة تجمع التكتل اليهودي في مدينة سالونيكا بعد فتح العثمانيين لها ؛ حيث تمكنوا من الاستفادة من هذه البقعة والميناء البحري الاستراتيجي المهم ، وهكذا يمكنك أن تلاحظ أنه خلال القرن السادس عشر استطاع اليهود الأوربيون الظهور بالمظهر المشرف في الدولة العثمانية ، حيث أظهروا مهارات وقدرات تمكنهم من أداء الخدمات الخاصة والمهمة ، لذلك .. كانوا

يؤدون بعض الأعمال الخاصة لملوك مصر الذين كانوا يستعينون بخبرتهم ومعرفتهم باللغات الأوروبية ، ومن ثم .. كانت تعهد إليهم المهام الخاصة بالأنشطة الدبلوماسية ، وأصبح لهؤلاء اليهود حق التنقل بحرية تامة ، والاشتغال بالتجارة تحت حماية الدولة العثمانية ، وقد استطعنا ، أخيراً ، أن نحصل على دليل قوي من المحفوظات والأرشيف الإسباني يؤكد أن الدولة العثمانية كانت تستعين أيضاً باليهود في التجسس لحسابها ضد أوروبا المسيحية ، معتمدة عليهم في ذلك اعتماداً تاماً .

بالإضافة إلى اليهود .. كانت هناك مجموعات أخرى من اللاجئين المضطهدين من الجماعات المسيحية تسمى "يونيتاريان" (أي الطائفة المسيحية التي تنكر عقيدة الثالوث (الآب والابن والروح القدس ولاهوت السيد المسيح عليه السلام) وعدد كبير آخر من المارقين المرتدين ، ويطلق عليهم التاريخ الإسلامي اسم المهتدين الذين وجدوا تاريخ الحق .

وفي القرن السابع عشر .. توقفت هجرة المرتدين واللاجئين إلى البلدان الإسلامية ، وذلك لتحسن الظروف في أوروبا ، وانتهاء حروب الدين التي جعلت الأوروبيين يتعلمون بعض التسامح في المسائل الدينية ؛ مما جعل المسيحيين الهراطقة (أي مبتدعي الأفكار التي تتنافى مع معتقدات النصارى) واليهود يستقرون بأوروبا .

أما الطوائف التي كانت تسعى للشهرة وجمع المال في الإمبراطورية العثمانية فقد انطلقت إلى العالم الجديد بمجرد ظهور الاكتشافات الأوروبية ، حيث أقيمت المستعمرات التي كانت تبشر بفرص أكثر للعمل . لذلك انطلق هؤلاء المغامرون تاركين العمل بخدمة المسلمين إلى أمريكا ، العالم الجديد .

وفجأة ظهرت حركة لجماعة جديدة هي القراصنة الذين كانوا يتحركون ويتنقلون من غرب أوروبا إلى أفريقية ، وكان ذلك في القرن السابع عشر ، وقد وضعت جماعة القراصنة كل مهاراتها البحرية والقتالية بين يدي زعيمهم كورسايرس الهمجي .

بعد ذلك .. بدأ اليهود يفقدون أهميتهم ، وتوقف تدفقهم من أوروبا إلى الشرق

الأوسط ، أما هؤلاء الذين كانوا بتركيا فقد فقدوا مهارتهم بناء على التغيرات التي ظهرت نتيجة الظهور المفاجئ لأمريكا ، أي العالم الجديد ، إلا أن بعض اللاجئين مازالوا يفدون إلى تركيا سعياً وراء الأمان والثروة ، وكان منهم هؤلاء الذين قدموا من بلغاريا وبولنده ، بعد أن فروا من الانقلاب أو الانتفاضة غير الموفقة التي حدثت في بلغاريا عام ١٨٤٨م ، مما جعلهم يلجأون إلى الإمبراطورية العثمانية ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وصارت له مكانة طيبة بعد ذلك في خدمة الدولة العثمانية ، فقد استطاعوا تحديث الإدارة التركية والمعدات العسكرية وتطويرها ، وكان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر . وهكذا . . تجد بعضهم يأتي من أوروبا ، وبعضهم الآخر يذهب إلى أوروبا خصوصاً اليونانيين ، الذين فقدوا الأمل كله - خلال القرن السابع عشر - في استعادة الإمبراطورية البيزنطية ، والتغلب على عدائهم السابق للنصرانية الغربية (*) .

بعد ذلك قام المسيحيون اليونانيون المقيمون بالأراضي العثمانية بإرسال أبنائهم إلى أوروبا ، وخصوصاً إلى إيطاليا ، للدراسة ، فاستطاع اليونانيون التخرج من الجامعات الإيطالية وتخصصوا في الطب .

في نفس الوقت . . قامت بعض الطوائف المسيحية العثمانية - لا سيما هؤلاء الذين ينتمون إلى الكنائس الشرقية - بالتوجه والاتصال بروما . ومنذ ذلك العهد - أي من أواخر القرن السادس عشر - استطاع الفاتيكان زيادة جهوده ، وتكثيفها بين مسيحيي الشرق الأوسط ، وقامت على الفور الأنظمة الرهبانية بإرسال بعثات المبشرين إلى لبنان ، وأماكن أخرى متعددة ، ثم أنشئت بعد ذلك بعض الكليات لتعليم أبناء الطوائف الشرقية في روما ، ومن ثم تأثرت الطقوس الدينية الخاصة باليونانيين والمسيحيين والأرمن والأقباط المارونيين والسوريين ، باتصالاتهم بأوروبا ، التي أثرت أيضاً على تعاليمهم الأرثوذكسية ، وتركت أثراً على جيرانهم المسلمين .

بعد ذلك استطاع عدد من الأطباء اليهود الذين جاءوا من الغرب أن يطيحوا

(*) بيزنطة مدينة يونانية قديمة على البوسفور ، بنى الإمبراطور قسطنطين في موقعها (عام ٣٣٠ قبل الميلاد) مدينة القسطنطينية ، وقد عرفت في العهد العثماني بالآستانة ، وتعرف اليوم بإسطنبول . (المترجم) .

بالأطباء اليونانيين من الدولة العثمانية ، والإيطاليين الدبلوماسيين كذلك ، واستولوا على مكانتهم الاجتماعية مرة أخرى ، لأنهم يفهمون لغة الأتراك وعاداتهم .

في القرن السادس عشر بدأت الدول الإسلامية الثلاثة (تركيا - إيران - المغرب) في زيادة الاتصال بالدول الأخرى ؛ فقاموا بإرسال مبعوثين أو تجار لبعض الدول الأوروبية ، لتوطيد العلاقات بينهما . وكما سبق أن ذكرنا ، كان الملوك يستعملون اليهود الذين لم يعتنقوا الإسلام في حمل الرسائل والعودة بالرد . وثمة مثال على ذلك ، يتعلق بالأخين انطواني وروبرت شيرلي اللذين رحلا من انجلترا إلى إيران . في عام ١٥٩٨م ، قام إيرل(*) اسيكس بإرسال أنطوني إلى بلاد فارس للحصول على مؤازرتها ومساندتها ، والدخول معهم في تحالف ضد العثمانيين ، وطلب منه أن يظل هناك لفترة يقوم من خلالها بتدريب جيوش بلاد الفرس على فنون الحرب الأوروبية . وفي عام ١٥٩٩م ، أي بعد مرور عام من إرساله بواسطة إيرل اسيكس ، قام الشاه بإرسال انطوني إلى إيرل اسيكس بوصفه مبعوث الشاه أي مبعوثه الشخصي ، ولكن هذه المهمة لم تقدم أي نتائج . وهنا نود أن نقول إن أخاه روبرت شيرلي كان ما زال في إيران ، وقام الشاه في عام ١٦٠٧م بتزويجه ابنة أحد الزعماء الجراكسة ، وفي عام ١٦٠٨م أرسله في مهمة دبلوماسية إلى أوروبا ، ساعدت كثيراً في إنشاء علاقات دبلوماسية وتجارية بين انجلترا وإيران [٢٩] .

إن رجال الدولة المسلمين كانوا نادراً ما يرسلون في مثل هذه المهام الرسمية إلى أوروبا ، ولكننا نسمع عن السفير المغربي الذي أرسل إلى لندن أيام شكسبير ، ويبدو أن هذا الأعرابي هو الذي أوحى إليه خلق شخصية عطيل الشهيرة ، ونسمع أيضاً عن البعثات التركية إلى فيينا ، وباريس ، وبعض العواصم الأخرى وذلك في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، ولكن في عام ١٥٨١م ، لم يصل إلى باريس سوى مبعوثين فقط من الأتراك : الأول منهم توجه لتقديم دعوة إلى هنري الثالث ملك فرنسا من السلطان التركي مراد الثالث بمناسبة ختان ابنه الصغير محمد ، أما المبعوث

(*) إيرل : لقب إنجليزي أدنى من ماركيز ، وأرفع من كونت . (المترجم) .

الثاني فقد توجه أيضاً إلى فرنسا لإحضار نسخة من الامتيازات الممنوحة للرعايا الأجانب (داخل الدولة العثمانية) ، التي تم تجديدها ، وقد أرسل معه خطاباً بهذا المعنى إلى هنري الثالث ، ولكن المبعوث التركي ظل في مدينة البندقية ثلاثة أشهر منتظراً السماح له بدخول فرنسا ، وكاتب السفير الفرنسي بالبندقية الملك بذلك فبعث إليه بأنه لا يرغب في مقابلة هولاء الأتراك ، لأن هذا السلوك يخالف المسيحية ، فالمقبول هو إرسال مبعوثين مسيحيين إلى الملوك والأمراء المسلمين ، أما استقبال مبعوثين في هذه العواصم النصرانية فسلوك غير مقبول .

فما زال السفير الفرنسي بالملك حتى غير رأيه وأقنعه بمقابلة المبعوثين الأتراك الذين استقبلوا استقبالاً حافلاً بباريس ، وأرسلت بعد ذلك بعثة دبلوماسية تركية أخرى عام ١٦٠٧م ، ولكن ، يبدو أن الأوروبيين والأتراك كانوا يفضلون مواصلة أعمالهم في اسطنبول بعيداً عن العواصم الأوروبية [٣٠] ، أما زيارة المبعوثين الأتراك إلى أوروبا ، فكانت دائماً ما تحاط بالشك والريبة والتساؤلات : هل هذه محاولة للتحالف ضد قوة أو دولة مسيحية ، أو ضد المتمردين الأوروبيين الذين استقروا ببلدان الشرق الأوسط بين المسلمين ؟

ويقال إن ظهور المبعوثين الأتراك في باريس عام ١٦٤٠ وعام ١٦٦٩ أوحى إلى موليير - الكاتب المسرحي - تجسيدهم في إحدى مسرحياته ، أما زيارة المبعوث الفارسي إلى باريس لمقابلة لويس السابع فقد لفتت كثيراً من الأنظار . وظهرت بعد ذلك البعثات المغربية في عدة مناسبات مختلفة ، ويبدو أن عدداً منهم كانوا يتفاوضون على دفع الفدية الخاصة ببعض الأسرى الذين أسروا عن طريق البحر المتوسط [٣١] .

ونود أن نقول إن كل هذه البعثات الإسلامية المبكرة إلى أوروبا ، عرفناها من مصادر غربية . فمعظم هذه الأحداث قد لا تكون مسجلة في سجلات الأحداث الإسلامية . وطبقاً للروايات الإسلامية فإن أول سفارة أقيمت هي التي رأسها السفير العثماني كارا محمد باشا ، الذي توجه إلى فيينا عام ١٦٦٥م [٣٢] بمناسبة توقيع معاهدة (هدنة) بين العثمانيين والأمراء النمساويين ، وإقامة علاقة صداقة بين الدولتين ، وتعد

هذه أول سفارة عثمانية على نطاق واسع ، ويقال إن السفير اصطحب وفداً مكوناً من ١٥٠ شخصاً ، أما المترجم فكان شخصية معروفة حينذاك ، وهو أوروبي يسمى فرانكيز دي مسجينين ، وكان يعد كبير المترجمين للإمبراطور النمساوي ، وقد كتب تقريراً مطولاً عن هذا الحدث باللغة الإيطالية ، وحفظ في الأرشيف بمدينة فيينا ، وسجل فيه البروتوكول وأسلوب الترحيب الذي استقبلت به البعثة التركية ، والموافقة على إنشاء السفارة في هذه المدينة [٣٣] .

هناك أحد الرحالة يسمى إيفليا چليبي ، قام بوصف العاصمة النمساوية ، وهو كاتب روماني ، لم يخف عن قرائه أن زيارته للنمسا لم تكن للاستجمام أو الدراسة ، وقد استطاع أن يكتب عشرة مجلدات ، وفي (كتاب الرحلات) قام بوصف عديد من البلدان التي زارها ، ووصف أيضاً كثيراً من البلدان التي لم يضع فيها قدمه ، ويبدو أنه كان يسجل كل ما يسمعه ، فلم يميز بين الحقيقة والخيال . وفي المجلد السادس من رحلاته يصف أحد الحملات العسكرية ، من أساطيره التي اشترك فيها شخصياً ، فيقول أنه كان ضمن أربعين ألفاً من جنود الترك التتار الذين اكتسحوا النمسا وألمانيا وهولندا ، ثم اتجهوا معاً إلى بحر الشمال .

وفي المجلد السابع يصف فيينا والنمسا التي قام بزيارتها فيقول إنه كان أحد أعضاء سفارة كارا محمد باشا . وفي إحدى المرات كان يقول إنه لم يقم بزيارة فيينا [*] [٣٤] ، وذلك قد يدعو إلى الشك في المجلدات التي كتبها .

ووصفه للإمبراطور النمساوي يعد مثالاً على أسلوبه الأدبي حيث يقول: "خلق الله هذا الرجل ، وحباه رأساً كالزجاجة ، استدارت فبدت وكأنها طرطور درويش يرقص ، ومنحه حاجبين مفلطحين ، فإذا نظرت إلى وجهه وجدته مستطيلاً شاحب اللون ، يبدو عليه مكر الثعالب ، ولقد حباه الله أذنين كبيرتين كأنهما أحذية الأطفال ، وأنفاً أحمر كحب العنب الأحمر ، أما أنفه فكلتا فتحتيه يمكنك من وضع ثلاثة أصابع داخلها ، وله شارب كثيف كأنه لشاب في الثلاثين من الشباب المتعجرف ، تجده مسترسلاً فوق شفتيه كشفتي الناقة ، وله فم يمكنه من ابتلاع رغيف كامل دفعة واحدة

فعندما يتكلم يتطاير الرذاذ من فمه ، لذلـك جعلوا له غلاماً بجواره يقف ممسكاً بمنديل أحمر يمسح له بصاقه ، أما أصابعه فتشبه الخيار ، وأقسم لو كان كل الأباطرة بهذا الشكل القبيح ، ثم حاول أحد الفنانين أن يرسم لأحدهم وجهاً جميلاً على إحدى العملات لشنقوه ، لأن هؤلاء الأباطرة يفتخرون بقبح وجوههم" (٣٥) .

ورغم هذه الصورة الكاريكاتورية الهزلية . . إلا أن إيليا چليبي ، كان أول من يتجاوز نماذج السخرية التقليدية ، ولكنه يصف الإمبراطور النمساوي بمعلوماته الخاصة التي جمعها من بيئته المحيطة ، من العثمانيين ، وهذا يعد وصفاً ، وليس فيه مقارنة ما في دول أوروبا بما يقابله في الدولة العثمانية .

وصار عرفاً عند سفراء تركيا إلى أوروبا ، أن يكتبوا تقارير مفصلة عند عودتهم إلى بلادهم يصفون ما شاهدوه ، وما قاموا به من أعمال ، وظلت هذه التقارير والرسائل تكتب من أواخر القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر .

ومن هذه التقارير نذكر ما كتبه محمد سعيد المعروف ببيرميزكي (أي سيد الثامنة والعشرين) لأنه كان يعمل ضابطاً بالفرقة ٢٨ فصيلة عسكر حرس السلطان العثماني ، وتوجه إلى باريس في الفترة ١٧٢٠ - ١٧٢١ سفيراً عثمانياً إلى البلاط الملكي للقاء الملك لويس ، والتفاوض على توقيع إحدى المعاهدات المهمة ، وقد عمل بعد ذلك رئيساً لخزانة الإمبراطور (٣٦) .

وكان من مهام السفارة الاتفاق مع السلطان على اتخاذ الإجراءات الضرورية لإعادة ترسيم الكنيسة الضريح المقدس ، والتفاوض على ما سلبه فرسان مالطة ، والتفاوض حول بعض القضايا الدبلوماسية والسياسية (٣٧) ، وقد طلب من السفير إعداد دراسة عن الحضارة والتعليم الأوروبي ، لتطبيقه في الدولة العثمانية . إن هذا الرجل يعد أول مبعوث عثماني يحوز احترام الآخرين له ، وتقربهم إليه في باريس (٣٨) ، وعندما كان يمر بأحد القنوات متوجهاً إلى مقره كانت الحشود تتجمع على الضفاف لتنظر إليه وتحييه . ومن الملاحظ أن السفير محمد سعيد لم يحاول مقارنة ما يراه في فرنسا ، بما

عليه المجتمع العثماني [٣٩] ، وإن كان معروفاً عنه دقة وصفه للأشياء ، فمثلاً عندما كان يصف المرصد السماوي كان يصفه بدقة العالم المتمكن الذي يعرف هذه الآلات والأدوات العلمية ، كذلك وصفه للمستشفيات والأنشطة الثقافية كالمسرح والأوبرا ، والصناعة الفرنية ، وفن المعمار ، وتصميم القصور ، والحدائق ، والطرق والقنوات والجسور .

وهنا يمكنك أن تلاحظ الفرق بين ما يراه السفير محمد سعيد ويصفه ، وبين ما يراه إيليا جليبي في فيينا ويصفه .

يقول الدوق دي سانت سيمون الذي التقى بالسفير العثماني خلال فترة إقامته بباريس : "إن هذا الرجل يتسم بالخبرة والمعرفة ، ويبدو عارفاً بالكثير عن الآلات والتصنيع وخصوصاً العملات ، والطباعة ، ويبدو أن لديه علماً وخبرة عظيمة بالتاريخ ، استطاع استيعابها من المجلدات والكتب الراقية" [٤٠] . ويقول سانت سيمون: "إنه بمجرد عودة السفير العثماني إلى اسطنبول فإنه سيقيم مطبعة ومكتبة ، وسوف يساعده في ذلك ابنه سيد أفندي الذي رافقه في رحلته إلى باريس ، والذي صار له بعد ذلك مستقبل مرموق ، بعد أن عمل في السلك الدبلوماسي ، ثم صار رئيساً للوزراء في الدولة العثمانية" .

توالت بعد ذلك زيارة البعثات العثمانية إلى كل من لندن وباريس وبرلين وفيينا ومدريد وسانت بطرسبورج ، وكان أعضاؤها يداومون على كتابة التقارير الخاصة بهم ، ولكن لم يكن من بينهم من يكتب عن الظروف العامة أو السياسية في هذه البلدان ، ويبدو أن هذا الافتقار إلى التعليق السياسي يعود إلى أن هذه المستندات أو التقارير لم تكن سرية ، والدليل على ذلك أنه عند عودة محمد سعيد أفندي إلى اسطنبول قادماً من باريس عام ١٧٢١م ، قام بإرسال صورة من تقريره إلى السفير الفرنسي في اسطنبول على سبيل المجاملة ، فقام السفير الفرنسي بترجمة التقرير ونشره في كل من العاصمتين .

ولقد استطاع اثنان من المبعوثين العثمانيين أن يجدا أهدافهم ووسائل التحليل في

مقدمة ابن خلدون ، هذا المؤرخ العربي العظيم ، وقد كان مشهوراً ذائع الصيت في العهد العثماني ، ومن ثم فقد استعانا بعبارات وجمل ابن خلدون في وصف الأحداث التي تدور في أوروبا (٤١) ، والدليل على صدق ذلك هو استعانة رسمي أفندي ، الذي عين سفيراً في فيينا عام ١٧٥٧م ، ثم سفيراً في برلين عام ١٧٦٣م ، بكلمات وعبارات ابن خلدون في مناقشة التغيرات في الموقف الأوروبي والثورة الدبلوماسية ، وانتصار بروسيا على أعدائها (٤٢) .

وفي أواخر القرن الثامن عشر .. ذهب مبعوث عثماني آخر ، يدعى فاسيف أفندي إلى مدريد في الفترة ما بين ١٧٨٧م إلى ١٧٨٩م (٤٣) ، وكان من رجال الأدب الرواد في عصره وتولى في أحد الأعوام منصب المؤرخ الرسمي لتدوين الوقائع التاريخية بالإمبراطورية ، ثم تولى منصب السكرتير العام لرئيس الوزراء ، وهو منصب يتيح له الاحتكاك بالشئون الخارجية ، وخلال إقامته في إسبانيا تعرف على الكاتب الإنجليزي ليام بيكفورد الذي تحدث عنه في مذكراته الخاصة ، ويبدو أنه كان يعتمد على الوهم في وصف الإسبان في بعض رحلاته .إنه يتحدث عن أول الصعوبات التي تواجه الزائر العثماني لأوروبا ، وذلك عند مروره من الكارنتينا - أي الحجر الصحي - الذي أقامته الحكومات الأوروبية ، لحماية أنفسهم من خطر العدوى ، التي قد تأتي مع الزوار القادمين من الشرق ، ثم يواصل سرد روايته قائلاً : "بعد ذلك توقفت بنا الباخرة في برشلونة . ومن هناك اتجهنا إلى بلنسية ؛ حيث تبادلنا الهدايا مع القائد الإسباني الذي تسبب لي في بعض المضايقات بعد أن سلمته هدية ، كيساً مزركشاً للنقود ، كنت قدمت مثله للقائد الإسباني الذي التقيت به في برشلونة ، ومن ثم ، أرسل القائد إليّ بزجاجتي زيت زيتون ، ومن هذا السلوك يمكن للمرء أن يحكم على شخصية هؤلاء الإسبان" (٤٤) . وهناك شخصية أخرى بارزة ، وهو أبو بكير راتب أفندي الذي أرسل إلى مدينة فيينا ليشغل منصب سفير ، وذلك فيما بين عامي ١٧٩١ - ١٧٩٢ ، وقد استطاع هذا السفير العثماني أن يكتب تقارير مطولة ، تتعلق بكل من الشئون السياسية والعسكرية ، وقام بوصف هيكل الحكومة النمساوية وبنيانها ، وتنظيم القوات المسلحة النمساوية ، واستطاع أن يعقب على المجتمع النمساوي .

وهو أحد الكتاب العثمانيين الذين استطاعوا نقد الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ؛ فعقب على مشكلة التخلف والضعف العثماني ، وتقدم المسيحيين الذي يتطلب نوعاً من الدراسة المقارنة ومحاولة تقليد المناهج الناجحة التي اتبعوها (٤٥) .

ولم يكن السلطان العثماني المسلم الوحيد الذي يحتاج لإرسال مبعوثين إلى أوروبا ، فقد كان السلطان المغربي يداوم ، هو أيضاً ، على إرسال مبعوثيه الذين كتبوا تقاريرهم الخاصة بذلك ؛ فمنهم من كان يدفع فدية لتخليص المسلمين الأسرى في بلاد المسيحيي وهكذا (٤٦) .

ومن التقارير ذلك السجل المبكر الخاص بالوزير الفاشاني السفير المغربي لدى الملك تشارلي الثاني ملك إسبانيا ، فقد قام بزيارة مدريد في الفترة ١٦٩٠ - ١٦٩١ ، ففي تلك الأونة استطاع السلطان المغربي أن يلقي القبض على لاراتشي ، وهو إسباني ومعه حامية من الجنود . وطالب في مقابل تسليمهم إطلاق سراح خمسمائة من المساجين المسلمين في إسبانيا ، وخمسة آلاف مخطوطة عربية من مكتبة الاسكوريال ، وقد وافق الطرف الآخر على ذلك (٤٧) .

وكان الغاساني رجلاً ذكياً ويتسم وصفه لإسبانيا بالذوق والجمال ، فقد بدأ الكتابة زائراً مغربياً عادياً لإسبانيا ، وانتهى باكتمال الفتح ، ولم يكن الغاساني السفير الوحيد ، فقد توالى إرسال السفراء إلى أوروبا وخصوصاً إسبانيا .

وتعني كلمة المغرب في العالم الإسلامي بلاد المغرب الأقصى ، وهي دولة كانت بعيدة كل البعد عن تهديد دول أوروبا لها ، ولقد شاهدوا ضياع شبه جزيرة إيبريا من العالم الإسلامي منذ عدة قرون ، وما زالوا يشاهدون عملية الفتح التي قام بها الإسبان والبرتغاليون ، حاملين رايات النصرانية عبر المضايق في اتجاه شمال افريقية ، ولكنهم - أي المغاربة - واجهوا بعض المشكلات في القرن السادس عشر ، وهذه المشكلات واجهتها كل من الدولة العثمانية والمصريين في القرن الثامن عشر عند تصديهم للصليبيين .

ولم يكن شاه إيران أقل اهتماماً من نظرائه بتوطيد علاقاته مع أوروبا ، فقام بإرسال أحد مبعوثيه الفرس إلى انجلترا واسمه ناقد على بك الذي كان يلازم سير روبرت شيرلي عام ١٦٢٦م[٤٨] .

أما الشخصية المهمة التي لفتت أنظار الجميع فهو محمد رضا بك الذي أرسله الشاه إلى باريس عام ١٧١٤م ، وأسفرت زيارته عن توقيع المعاهدة الفرنسية الفارسية في العام التالي على الفور .

ولم يبدأ النشاط الدبلوماسي الفارسي لإيران في أوروبا إلا في القرن التاسع عشر عندما بدأت نيران حرب نابليون تمتد من بلد إلى آخر من ناحية ، وظهر تقدم القوات الروسية من ناحية أخرى ، مما جعل الإيرانيون ينظرون إلى الغرب ، ويستلهمون روح وفكر مونتسكيو[٤٩] .

ويعد الحاج ميرزا أبو احسن خان ابن سيرزا علي شيرازي المعروف بأبي الحسن الشيرازي أول الزوار الإيرانيين للغرب .

وكان كبير الوزراء عمه وحماه ، ومن ثم ، غادر أبو الحسن مدينة طهران ، متوجهاً إلى لندن في ٧ مايو ١٨٠٩ ، وكان يرافقه في هذه الرحلة الكاتب الشهير جيمس موريير ، مؤلف الرواية الخالدة "حاجي بابا الأصفهاني" وكان غرض الرحلة التأكيد على الإعانة التي وعدت بها بريطانيا بناء على معاهدة مارس ١٨٠٩م وطريقة دفع هذه الإعانة . بعد ذلك ترك أبو الحسن لندن في رحلته للعودة يوم ١٨ يوليو ١٨١٠م ، يرافقه كل من جيمس موريير ، وسير جون أوزلي وهو مستشرق بريطاني .

وفي عام ١٨١٥م . . أرسل بوصفه مبعوثاً خاصاً إلى مدينة سانت بطرسبورج ، وفي عام ١٨١٨م أرسل مرة أخرى في مهمة خاصة إلى انجلترا ، ثم عين بعدها مسئولاً عن العلاقات والشئون الخارجية ، واستمر في هذا المنصب حتى عام ١٨٣٤ ، وفي هذا العام توفى فارس على شاه .

وثمة تقارير كتبها شيرازي عن مهمته في انجلترا عام ١٨٠٩ - ١٨١٠ ، ولكنها لم تنشر بعد[٥٠] .

ثمة مبعوث إيراني آخر أرسل إلى الغرب ، يدعى حسين خان مقدام رجودان باشا ، وهو ضابط بالجيش تم ترقيته إلى لواء الجيوش ، وفي عام ١٨٣٨م أرسله محمد شاه في مهمة دبلوماسية إلى أوروبا ، وذلك لحماية وتأمين استدعاء السفير البريطاني في طهران ، وهو سير جون ماكينل ، فتوجه إلى اسطنبول ، ثم فيينا ، ثم باريس ، وبعدها توجه إلى لندن في أبريل عام ١٨٣٩م ، ويبدو أن حسين خان لم يترك خلفه تقارير أو أشياء توضح مغامراته (٥١) .

ولم يكن الدبلوماسيون المسلمون الزوار الوحيدين من العالم الإسلامي إلى بلدان الغرب (٥٢) ، فقد كانت هناك الأقليات من المسيحيين واليهود - في العصور الوسطى - يداومون الارتحال إلى أوروبا لأغراض دينية أو تجارية، ونذكر منهم القس الياس بن حنا، وهو من الموصل ، رحل عام ١٦٦٨م إلى إيطاليا ، ثم فرنسا ، ثم إسبانيا ، ومن هناك أبحر على ظهر أحد البواخر ، متوجهاً إلى المستعمرات الأمريكية . فكان أول شرقي - من الشرق الأوسط - يقوم بزيارة هذا العالم الجديد في بيرو ، وبنما ، ومكسيكو (٥٣) ، ويصفه خلال فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة .

وكانت هناك قلة من اليهود المتنصرين يعيشون في الأراضي الإسلامية ، وهم ذوو ثقافة متواضعة ، وأقل أهمية من نظرائهم المسيحيين ، ولدينا كثير من التقارير مما يفيد انتقال اليهود وارتحالهم من أوروبا إلى الشرق الأوسط ، ولكن ، ليس لدينا كثير عن انتقال اليهود وارتحالهم من الشرق الأوسط إلى أوروبا ، وهذا يعود في المقام الأول إلى انجذاب اليهود إلى الأراضي المقدسة الخاصة بهم ، إلى أورشليم أرض العبادة والحجيج .

وليس هناك سوى قليل من الكتب من هذه الانتقالات ، نذكر منها المقتطفات التي ذكرها إبراهيم بن يعقوب الذي اعتنق الإسلام بعد ذلك ، ومنها ذلك العمل الذي يتعلق بالحاخام هاييم دافيد أزولاي ، الذي سافر كثيراً إلى أوروبا ، وكان يجمع الأموال لمدرسة تخريج الحاخامات في مدينة هبرون . هذا الحاخام قد استطاع القيام بثلاث رحلات : الأولى ، ما بين عامي ١٧٥٣ و ١٧٥٨م إلى كل من إيطاليا وألمانيا وهولندا

وانجلترا وفرنسا . والثانية عام ١٧٦٤م إلى هذه البلدان نفسها ، أما الثالثة فكانت في عام ١٧٨١ ، وكانت إلى إيطاليا فقط ، وظل بها حتى وفاته في مدينة ليفورنو عام ١٨٠٦ . ولقد ألف هذا الحاخام كتاباً عن رحلاته ، وطبع مؤخراً ، ونشرته ، عن مخطوط سيرته الذاتية ، المدرسة اللاهوتية اليهودية لتخريج القساوسة في نيويورك (٥٤) .

ففي القرون الوسطى ، كان يتفق على أن تكون للتجار أماكن خاصة لمبيتهم ، وليست دوابهم ، وهنا ظهرت كلمة عربية من أصل يوناني ، هي كلمة فندق التي تعني المأوى للبشر وللحيوان ، ولتخزين البضائع الشائعة في العالم الإسلامي ، لذلك كان يسمح للتجار بالحفاظ على فنادقهم الخاصة ، ولا يسمح لغيرهم باستخدامها ؛ فكانوا يطلقون أسماء بلادهم عليها ، مثل فندق فينيسيا (البندقية) ، والفندق الفرنسي . . إلخ ، ويقال إن أوروبا كانت تطبق الإجراء نفسه ؛ حيث كانت تطلق على بعض الفنادق أسماء عربية ، ويقال إنه كانت هناك مستعمرة عثمانية للتجار في فينيسيا في أواخر القرن السادس عشر ، ويقال أيضاً أنه عند اندلاع نيران الحرب بين فينيسيا والدولة العثمانية في عام ١٥٧١ طلب مجلس الشيوخ الفنيسي إلقاء القبض على التجار العثمانيين في فينيسيا ، وقامت أيضاً الدولة العثمانية بإلقاء القبض على تجارهم الذين بمدينة اسطنبول (٥٥) .

وفي عام ١٥٧١ طالب محمد باشا المسئولين بفينيسيا بإطلاق سراح التجار العثمانيين وبضائعهم مقابل التجار الذين من فينيسيا وبضائعهم المحجوزة في اسطنبول ، ويقال إن نسبة كبيرة من التجار العثمانيين كانوا من اليهود . وفي العام نفسه (١٥٧١م) تم إطلاق سراح التجار ، وفي عام ١٥٧٣ بعد عودة السلام بين الدولتين عادت التجارة كما كانت عليه من قبل ، وبدأت في زيادة نشاطها ، فقام العثمانيون بزيادة عدد المترجمين الذين يعملون بخدمتهم ، وطالبوا فينيسيا أن تسمح للأتراك بإقامة فندق خاص لهم ، شبيه بهذه الفنادق الخاصة بالمسيحيين في بلاد المسلمين (٥٦) .

كان هنالك رجل يوناني مقيم في فينيسيا (البندقية) يعرف كثيراً عن عادات العثمانيين وتقاليدهم ، فكتب إلى رئيس القضاة (في مدينة البندقية) يقترح إنشاء خان ، يضم كل هؤلاء التجار معاً ، ويكون منتجعاً لهم ، ومن ثم . . وافق مجلس الشيوخ على هذا الاقتراح في ١٦ أغسطس من عام ١٥٧٥م ، فتعالت بعدها أصوات تحتج على هذا التجمع من التجار العثمانيين في مكان واحد ؛ مما جعلهم يفكرون في إنشاء مسجد جامع للصلاة ، وهذا يسيء إلى المدينة أكثر مما أساء إليها اليهود والألمان البروتستانت . وفي نفس الوقت ، فإن هذا المكان قد يخدم المطامع السياسية العثمانية التي تمتلك القوى البحرية ، والتي يقودها السلطان . وهذا قد يتسبب في تدمير مدينة البندقية أكثر مما يتسبب فيه الزعماء اليهود . ومن ثم فإن هذه الآراء زادت من الشقاق بين الأتراك الآسيويين والقسطنطينيين والألبانيين [٥٧] .

وفي القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر . . أخذ نشاط هذه التجمعات يتدهور من وقت إلى آخر ، بسبب اندلاع العداء بين البندقية والإمبراطورية العثمانية ؛ فاقتصرت الدولة العثمانية على استيراد المواد الخام فقط ، ولكنه بتوقيع معاهدة كارلوفيتس عام ١٦٩٩م ، بدأ التجار الأتراك العودة إلى مدينة البندقية مرة أخرى ، ولكن معظمهم كان يفضل إرسال البضائع عن طريق الوكلاء أو المراسلين تفادياً للبقاء في أراضي غير المؤمنين .

وفي أواخر القرن الثامن عشر . . ظهر التجار الأتراك مرة أخرى متبعين أسلوباً آخر ، ومن ثم فقد اختفت هذه الجماعات التي تمثل أقلية من التجار الآسيويين ، ولكن يقال إن معظم زوار أوروبا في منتصف القرن الثامن عشر وأواخره كانوا من دول البلقان [٥٨] ، وبدأت مدينة البندقية تسعى في محاولة تفادي ما قد يحدث من جراء تعصب أهل البندقية وعدائهم لمثل هؤلاء الزوار ، فصدر قانون في ١٦١٢م بفرض عقوبات صارمة على من يعتدي بالكلمة أو بالفعل على التجار الأجانب بالمدينة ، وهذا يشير إلى أن حماية الرحالة المسلمين أو المقيمين منهم بالمدينة من الاعتداء عليهم أو إصابتهم لم تكن عملية سهلة ؛ لأنك قد تجد التسامح من المواطنين وقد لا تجده أيضاً .

obeikandl.com

صدرت بعد ذلك مراسيم وقرارات ملكية من إسبانيا إلى السويد ، بمنع دخول اليهود والمسلمين إلى أراضيها ، كما قامت الحكومة الإسبانية في عام ١٧١٣ ، بناء على معاهدة أوترخت بالتخلي عن حقها في جبل طارق إلى الحكومة البريطانية ، واعترفت بالسيادة البريطانية على جبل طارق ، بشرط أن تقوم حكومة جلالة ملكة بريطانيا بناء على الأوامر الصادرة من الملك الكاثوليكي بعدم الموافقة على منح إذن لأي من اليهود المغاربة (من غرب الأندلس وشمال غرب أفريقية) بالإقامة أو الاستقرار في المدينة المجاورة لجبل طارق . لذا .. يجب على حكومة جلالة الملكة البريطانية التعهد بذلك منذ البداية" [٥٩] .

إن عدم رغبة الأوروبيين في استقبال الزائرين المسلمين ، جعل المسلمين ورحالة الشرق الأوسط يمتنعون عن الذهاب إلى أروبا .

بعد ذلك .. ظهرت مستعمرة يهودية من أبناء لاي في إيطاليا في مدينة البندقية ، وكانت تحافظ على الاتصال مع الدولة العثمانية ، وتوالت أيضاً حركة اللاجئين من جديد ، فبدأت أعداد كبيرة من اليهود والمسيحيين الهروب من النصرانية إلى أراضي الإسلام ، بينما كان عدد اليونانيين المسيحيين ، الذين هاجروا من اليونان إلى إيطاليا بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية ، محدوداً .

بعد ذلك .. فرت جماعات مسيحية مارونية من لبنان وبعض الجماعات الصغيرة الأخرى من الأرمن واليونانيين ، ومعظمهم من الطوائف المسيحية التي تنكر عقيدة الثالوث وألوهية السيد المسيح ، واستقروا في روما ، ومدينة البندقية وفي بعض البلدان الأوروبية الأخرى .

كذلك كانت هناك مجموعة من الأمراء العثمانيين الذين فروا أيضاً من أوروبا ؛ سعياً وراء اللجوء والاستقرار هناك بعيداً عن النزاع والخلافات داخل الدولة العثمانية [٦٠] ، وكان منهم أحد الشخصيات المهمة ، ألا وهو الأمير جيم إلى جزيرة رودس (باليونان) ؛ حيث استقر بها بعض الوقت ، وكان يحكم هذه الجزيرة فرسان

القديس جون ، وفي عام ١٤٨٢ أبحر الأمير من هناك إلى فرنسا ، وحاول جاهداً الحصول على تأييد الحكام الأوروبيين ومؤازرتهم ، ففشل ، ولكن الحكام الأوروبيين كانوا يعدونه رهينة ، أو مخلباً يمكن استخدامه ضد السلطان العثماني .

بعد ذلك استقر الأمير ، الذي كان يصحبه عدد من العثمانيين منهم حيدر ، وهو أحد الشخصيات العثمانية البارزة في ذلك العهد ، استقر الأمير بمدينة نيس بفرنسا لمدة أربعة أشهر [٦٣] .

بعد ذلك لما طلب البابا فرسان القديس جون بنقل الأمير جيم إلى روما ، لصالح النصرانية ، فوصل إلى روما في الرابع من مارس عام ١٤٨٩ ، واستقبله البابا بعد وصوله بعشرة أيام ، وصار منذ ذلك الحين الهدف بدلاً من الموضوع ، وكثرت عليه المزايدات والمساومات بين المسيحيين .

وفي عام ١٤٩٤ .. قام ملك فرنسا تشارلي بالتوجه إلى روما ، والتقى بالبابا ، وبعد مناقشات .. استقر الأمر على أن يذهب الأمير جيم مع ملك فرنسا ، ورافقه في الحملة العسكرية التي قام بها ضد نابلس ، ولكنه شعر بألم أثناء هذه الرحلة ومات في نابلس في ٢٥ من فبراير عام ١٤٩٥ ، وكانت ثمة إشاعات تقول أن السم قد وضع للأمير بأمر البابا نفسه .

وترك الأمير العثماني الذي عاش في النفي ، وصية يطلب فيها الإعلان عن وفاته على الجميع منذ موته ؛ حتى لا يستخدم الكفار اسمه ، في خططهم عند مهاجمة الإسلام وطلب أن يتسلم أخوه جثته ، ويعود بها إلى أراضي الدولة العثمانية ، وأن تسدد ديونه ، وأن يهتم بأمه وابنته وبقية أهل منزله ، وقد تم هذا بالفعل .

لقد ترك الأمير جيم سجلاً حافلاً بالمغامرات عن بلاد الإفرنجة ، وما تركه خلفه في الدولة العثمانية ، وكان هذا الأمير شاعراً فذا ، جمعت قصائده في ديوانين ، أحدهما في بلاد الفرس ، والآخر في الدولة العثمانية ، بالإضافة إلى بعض رسائله التي حفظت في محفوظات الدولة . وهناك أيضاً التقرير الذي يوضح مهمة الجاسوس العثماني ، الذي أرسل في أعقاب الأمير من اسطنبول ليراقب نشاطه .

obeikandl.com

وبالإضافة إلى الدبلوماسيين والتجار والحجاج .. كانت هناك فئة أخرى هم المرشدون الذين يعملون في الغرب ، وكذلك الجواسيس . ومن طبيعة هذه الأشياء استطعنا أن نجد بعض المعلومات ، التي كانت تشير إلى وجود هذه الأنشطة التي لاتعتمد على منظمات للتجسس ، لأنها تعمل في الخفاء .

وهناك معلومات تشير إلى أن المسلمين كانوا يشتغلون بأنشطة التجسس هذه ، ويرسلون عملاءهم بين النصارى ، الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه ، ولكن على نطاق أوسع ، وليس محدوداً مثل نشاط المسلمين .

وثمة تقرير يؤكد أن الدولة العثمانية استطاعت تجنيد عميل سري ، أرسل إلى فرنسا عام ١٤٨٦ ، لمراقبة الأمير جيم الذي يعيش في المنفى ، لأنه كان يمثل إغراءً واضحاً ، وفرصة سانحة ، لحكام النصرانية ، لاستغلاله ضد السلطان . لقد جعلت فترة الاثنى عشر عاماً التي قضاها هذا الأمير في أوروبا منه نقطة ارتكاز لعديد من المؤامرات للإيقاع به واستخدامه ضد الدولة العثمانية . وهذا جعل السلطان يشعر بالقلق ، فقرر مراقبة خصومه ، فكان عليه أن يحدد مكان الأمير أولاً ، ثم يقبض عليه ويعود به آخراً . لقد وجد عدد من المستندات المتعددة المحفوظة بقصر توكابي ، تشير إلى التعامل مع الأمير جيم . وثمة تقرير آخر من قبطان بحري من الأتراك أرسل إلى إيطاليا ثم أبحر إلى فرنسا ، حيث استطاع أن يجد الأمير المفقود ، وقدم تقريراً كاملاً عن رحلته إلى أوروبا دون أن يلفت الأنظار إليه ، لمعرفته بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم [٦٣] .

وثمة شخصية مهمة أخرى ، وهو مبعوث عثماني ، قام بزيارة انجلترا ، وتخفى تحت أسماء مختلفة ، وهو معروف بإسم جبريل دي فرانس ، وهو من أهالي فرنسا ، ويقال إن جبريل هذا كانت له اتصالات في الشرق الأوسط ؛ حيث كان والده قنصلاً فرنسياً بالإسكندرية ولما كان صغيراً اختطفته إحدى العصابات ، وبيع كالعبيد إلى العثمانيين فتبناه رجل مسلم ، وأطلق عليه محمد عبد الله ، والحق بخدمة السلطان ؛ حيث كان يعمل في تنظيم أعمال الجاسوسية لحساب الدولة العثمانية [٦٥] .

حينذاك كانت الدولة النصرانية تعد هذه الأغراض إعداداً حسناً ، فكان لديهم الأشخاص الذين يتحدثون بلغات بلدان الشرق الأوسط ، وكان لديهم موظفون دائمون وعملاء في الطوائف المتعددة المستقرة في بلدان المسلمين في الشرق الأوسط . وهناك معلومات تؤكد أن الإمبراطور البيزنطي والدول النصرانية والأوروبية والحديثة ، والدول الإسلامية ، جميعهم كانوا يقومون بعمليات التجسس ، ولكن نشاط المسلمين في ذلك كان محدوداً للغاية ، حيث لم تكن لديهم طوائف إسلامية تعيش مستقرة في أوروبا .

ونعود مرة أخرى إلى أوروبا ، حيث تطور ذلك النظام الذي عرف باسم "الكارنتينا" - أي الحجر الصحي - الذي كان يفرض فترة انتظار ، تصل إلى أربعين يوماً على الزوار تفادياً لانتشار بعض الأمراض داخل مدينة البندقية ، فقامت السلطات بهذه المدينة بتنفيذ هذا النظام في القرن الخامس عشر على كل من يأتي من الدولة العثمانية ، ومنذ ذلك الحين صار الحجر الصحي الوسيلة المهمة لحماية أوروبا من التلوث [٦٥] .

ثم صار هذا النظام يطبق على جميع الزوار مهما كانت ديانتهم أو جنسيتهم أو مكانتهم الاجتماعية ، سواء كان سفيراً أو تاجراً أو أحد الرعايا أو من الحجاج ، ولكن السفراء المسلمين كانوا يعدون نظام الحجر الصحي هذا نوعاً من الإهانة ، لأنه أثناء فترة حجزهم بالحجر الصحي كان الناس يتجمعون حولهم لمشاهدتهم ، فيقول السفير محمد سعيد الذي احتجز بالحجر الصحي بمدينة "جيت" بجنوب فرنسا: "عندما كنت أهم بالسير داخل الحجر الصحي كانت حشود من الناس تقف تنظر ناحيتي ، وخصوصاً النساء ، فكن يتجمعن في مجموعات كل منها تتكون من عشرة سيدات ، ويجلسن بالساعات يتفحصن المرء منا " [٦٦] .

ويقول فاسيف أفندي : "كنت أحاط بحشد كبير من المتفرجين الذين كانوا يحيوننا من مسافة بعيدة ، وكانوا ينظرون إلينا في دهشة ، وكأنهم لم يروا رجالاً قط من عالمنا ، ولكنني كنت أعلم بدهشتهم ، لأني جئت من بيئة تختلف عن بيئتهم " [٦٧] .

وأرسل عزمي عام ١٧٩٠ من برلين ، يقول :

"جاء الجنرال إلينا وقال : يجب أن تظلوا بالحجر الصحي لفترة من الوقت ، لأننا لا نريد انتشار أقاويل بين الناس بشأن هذا الموضوع" ، ثم يقول « عزمي وعرفت من كلامه أنه يحاول الاعتذار عن نظام لابد من تطبيقه » (٦٨) .

إن من يجرؤ من الرعايا على خرق هذا النظام يحاكم عسكرياً ، وتقرأ الأحكام عليه من مسافة بعيدة ، ويطلق عليه الرصاص ، ثم يدفن بإهمال شديد في أرض اللازاريتو - وهي جزء من الأرض الخاصة بالكارنتينا الذي يرفع فوقه العلم الأصفر - وعند لقاء أحد من الزملاء . . فإنه كان يقف على ضفة النهر يلوح لنا من بعيد ، وهذا ما كان عليه الحال في أرض النصرانية " (٦٩) .

إن أول شرح مفصل عن غرب أوروبا كان من بعض الرحالة المسلمين ، ولكنهم ليسوا من الشرق الأوسط أو من شمال افريقية ، وإنما جاءوا من الهند في الفترة ، التي كان يتقاتل فيها الحكام العثمانيون مع إيران ، متغافلين عن بلاد المسلمين في الشرق من تقدم أوروبا ناحيتهم ، وتقدم الروس من الشمال ، والقوة البحرية من الجنوب ؛ فسقطت في هذه الآونة بعض الأراضي الإسلامية البعيدة تحت الحكم الأجنبي ، أما تقدم القوات الروسية الإمبراطورية والبريطانية في شمال آسيا وجنوبها فقد جعل الملايين من المسلمين يقعون تحت سيطرتهم .

ويلتقي المسلمون والأوروبيون ، ليسا كجيران في الأرض أو بوصفهم زواراً ، ولكنه - ولأول مرة - يكون الأوروبيون في موقف الأسياد ، وكانت بالطبع تجربة قاسية أعقبها قيام عدد من الأوربيين بمحاولة اكتشاف هذا العالم الغريب الجديد .

أما المسلمان الهنديان اللذان قاما بزيارة انجلترا ، فأولهما الشيخ اعتصام الدين ، وهو مسلم بنغالي ، رحل إلى انجلترا عام ١٧٦٥م ، ويقال إنه أول هندي يقوم بزيارة لندن ، وترك قصة يتحدث فيه عن رحلاته ، في المحفوظات الخاصة ببلاد الفرس ، ويصف في روايته ما رآه من أماكن تلفت الأنظار في كل من انجلترا واسكتلندا ، وكان يعقب على بعض الملاحظات الدينية والعادات والتقاليد والتعليم والمجتمع ، والقانون ، وبعض الموضوعات العسكرية ، وأماكن اللهو ، كذلك تحدث عن قصر القديس جيمس

obeikandl.com

ومجلس البرلمان البريطاني ، كما قام بالتعقيب على الملاحظات والعادات الخاصة بالشعب الفرنسي ، أثناء توجهه إلى انجلترا من خلال فرنسا (٧٠) .

أما الشخصية الثانية ، وهي أشد أهمية ، فهو ميرزا أبو طالب خان ، الذي ولد في لوكنو عام ١٧٥٢م من أسرة تركية فارسية ، وكان يعمل مراقبا لإيرادات الدولة ، وقام بالرحيل إلى أوروبا في الفترة ما بين عامي ١٧٩٩ و ١٨٠٣م ، وأثناء عودته إلى الهند أنشأ كتابا عن مغامراته ، ودون به كل شيء عن تنقلاته ، وعن معظم أوقاته التي قضاها في لندن وأيرلنده ، وأثناء عودته مر خلال فرنسا وإيطاليا ، ثم الشرق الأوسط (٧١) .

لقد استطاع الإسلام أن يشق طريقه خلال المرحلة الجديدة التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما بدأ السلطان سليم الثالث في تنفيذ برنامج الإصلاح .

وفي عام ١٧٩٢ قرر السلطان أن جزءاً من برنامج التغيير يضع الدولة العثمانية في موازاة الدولة الأوروبية ؛ فبدأ بإنشاء السفارات العثمانية في البلدان والعواصم الأوروبية الرئيسية ، ومن ثم أنشئت أول سفارة في لندن عام ١٧٩٣م ، ثم في فيينا وبرلين ثم باريس .

وفي عام ١٧٩٦م وصل سيد علي أفندي إلى الجمهورية الفرنسية بوصفه أول سفير للسلطان العثماني ، وقد طلب من كل سفير منهم أن يتعلم لغة البلد التي يعمل بها ، بالإضافة إلى بعض الواجبات الدبلوماسية الأخرى ، كما طلب منهم معرفة وتعلم الأشياء التي تفيد الإمبراطورية عند تطبيقها (٧٢) .

لكن الرواد الأوائل من الدبلوماسيين العثمانيين الذين أقاموا في أوروبا كانوا من أبناء المسئولين الذين نشأوا في القصور ، وتعلموا بالطريقة التقليدية ، لذلك فهم يجهلون لغات الغرب ، ولا يعلمون بتقاليده المحافظة ، ومن ثم عندما تحكم على رسائلهم المتبادلة تشعر أنهم يهتمون باكتساب القليل من هذه البلدان التي يرسلون إليها ، وإنهم سعداء بما يتعلمون .

obeikandl.com

ومن بين هؤلاء العثمانيين . . نجد الدبلوماسي العثماني الفذ "علي عزيز أفندي" وهو من أهالي جزيرة كريت ، وابن أحد المسئولين العثمانيين ، وكانت لهذا الدبلوماسي عدة وظائف شغلها في الإدارة العثمانية ، لذلك تم اختياره سفيراً للدولة العثمانية في بلاد بروسيا . وفي عام ١٧٩٧م . . وصل إلى برلين في شهر يونيو ، وتوفى في أكتوبر ١٧٩٨م . وكان على عزيز أفندي يتحدث الفرنسية والألمانية ، وكان على دراية بلغة الأدب العربي ؛ حيث كان يلتقى في برلين بالمستشرق الألماني ردريك فون ديز ، وكان يناقشان معاً عدة موضوعات مختلفة تتعلق بالفلسفة والعلوم ، ومن خلال بعض المراسلات التي وجدت . . ظهر أن هذا السفير العثماني لم يكن يعرف الكثير من العلوم التجريبية ، أو الفلسفة العقلية للتفكير الواعي ، ولكنه وضع كتاباً قبل وفاته به مجموعة قصص من الأساطير ، وترجم هذا الكتاب المستشرق الفرنسي Petis de la Croix الذي قام بأول طبعة لهذا الكتاب في الفترة ما بين ١٧١٠ و ١٧١٢م ، وقيل إن هذا الكتاب يشبه في تأليفه الفني أسلوب كتاب ألف ليلة وليلة (٧٣) .

لم يرحل السفراء العثمانيون إلى أوروبا بمفردهم ؛ بل كان دائماً في صحبتهم عدد من المترجمين اليونانيين ، الذين كانوا يمثلون القنوات الرسمية التي يتم الاتصال عن طريقها . وكانوا يصحبون معهم أيضاً مجموعة من السكرتارية من العثمانيين ، كانت مهمتهم الأساسية هي تعلم اللغات وخصوصاً الفرنسية ، واكتشاف الجديد بالمجتمع الغربي . فكانت هذه المهام تقدم فرصاً لعدد كبير من صفوة الشباب العثماني المثقف ، كي يقضي بعض الوقت في العواصم الأوروبية ، يتعلمون فيه لغاتهم الغربية ، ويكتسبون فكرة عن الحضارة الأروبية . ومن ثم فإنه عند عودتهم يشغلون بعض الوظائف الحكومية المهمة ، وبذلك يمكنهم التمركز في فئة مهمة ومتخصصة داخل النظام البيروقراطي للدولة العثمانية ، وذلك بعد إتمام تدريبهم في أوروبا .

ونود أن نقول إن بعضهم يلتحق ضابطاً في الأكاديميات العسكرية والبحرية المطورة التي أصبحت كتلك الأكاديميات البحرية والعسكرية الغربية (٧٤) .

ومن هؤلاء محمد رايف ، الذي توجه إلى لندن ، وعمل بمنصب السكرتير العام

للسفير العثماني بلندن . ومنهم أيضاً يوسف أغا أفندي ، الذي شغل منصب السكرتير العام لرئيس الوزراء منذ عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٠٥م . بعد ذلك صار محمد رايف خبيراً بالسياسة والبروتوكول الإنجليزي . وبعد عودته إلى تركيا كان يلقب بمحمد الإنجليزي ، وقام بإعداد كتاب وصف فيه انجلترا وعدداً من مؤسساتها ، ثم حفظ هذا الكتاب في مكتبة السراي بمدينة اسطنبول ، كما أنه تمكن من تأليف كتاب عن الإصلاحات بالدولة العثمانية ، وتم طبع هذا الكتاب في يوسكودار (سكوتاري) في عام ١٧٩٧م [٧٥] .

وهكذا.. نجد أن معظم الضباط والدبلوماسيين ، كانوا من الطلاب الذين يجلسون بجوار أقدام مدرسيهم الأوروبيين يستمعون إليهم وإلى توجيهاتهم . وفي الماضي نجد حكام المسلمين يحاولون دائماً إرسال تلاميذهم إلى أوروبا ، ليأخذوا الفرصة السانحة للتعليم ، وكان من بين هؤلاء الحكام محمد علي باشا ، الذي يعد أول من أخذ بهذه الخطوة المهمة ، وهو حاكم مصر الذي أرسل أول تلاميذه إلى إيطاليا ، وكان ذلك في عام ١٩٠٩م . وقد بلغ عدد الطلاب بالخارج في عام ١٨١٨ ثمانية وعشرين طالباً ، وفي عام ١٨٢٦ أرسل محمد علي باشا أول بعثة من الطلبة المصريين إلى فرنسا ، وعدد طلابها أربعة وأربعون طالباً ، وصاحبهم أحد مشايخ الأزهر في ذلك الوقت ، وكانت مهمته لا تتعدى حدود الموجه الديني ، وكان معظم الطلبة الذين يوفدون من مصر للتعلم في أوروبا من الأتراك أو الرعايا العثمانيين ، وكان من بينهم المصريون الذين يتحدثون العربية ، وهم مسلمون بطبيعة الحال . ونذكر أن الشيخ الذي رافق بعثة الطلبة المصريين هو الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، الذي مكث بباريس خمسة أعوام ، استطاع خلالها أن يتقن الفرنسية ، وصار رفاعة من الشخصيات المهمة حيث استطاع بكتبه وتعاليمه أن يفتح مجالاً جديداً للفكر العربي على الدول الغربية ، وكان ذلك في القرن التاسع عشر [٧٦] .

ثم قام السلطان العثماني محمد الثاني بتتبع خطوات نظيره المصري (محمد علي باشا)؛ فأرسل أول دفعة من الطلبة الأتراك إلى عدة بلدان أوروبية مختلفة ، وكان تعداد

هذه البعثة يتجاوز مائة وخمسين طالباً وذلك في عام ١٨٢٧ ، وكان غرض السلطان من هذه البعثة تدريب هؤلاء الشباب ليصبحوا معلمين في المدارس الجديدة التي تنشىء في تركيا ، وقد توالى بعد ذلك إرسال البعثات إلى أوروبا ؛ فقامت إيران بإرسال مجموعات صغيرة من الطلاب إلى أوروبا في عام ١٨١٥ ، وكان من بينهم ميرزا محمد صالح ، الذي ترك عدداً من الكتب التي يبين فيها بعض تنقلاته [٧٧] .

ولسنا في حاجة لأن نقول إن هذه التحركات واجهت معارضة قوية من الدوائر الدينية المحافظة ، ومع ذلك استطاعت تلك الحركات أن تحصل على القوة التي تمكنها من الاستمرار ، وكان ذلك في بداية الحقبة الأولى من القرن التاسع عشر ، وازداد عدد الطلاب المسلمين من الشرق الأوسط في رحيلهم إلى أوروبا ؛ وخصوصاً في الهيئات التعليمية بالكليات والجامعات الأوروبية ، ومعظم هؤلاء المدرسين من الذين يعيشون في المنفى وأوروبا ، ولكنهم شعروا بسعادة عند عودتهم لتقاليدهم العربية .

أما الطلبة فقد تعلموا كثيراً من نظرائهم ومعلميهم ، وكان من الدروس المهمة التي تعلموها "تحول تاريخ الشرق الأوسط" .